تطور بلاد العرب الشمالية

وتأثير ذلك فى علاقاتهم الخارجية

للميجر ج . ب . كلوب

ترجمة الأستاذ جميل فهمي

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

الوجهة التاريخية :

عند انتقالنا من بحث النظريات المتعلقة بالوجهة الدينية ومناخ البلاد لبحث الوجهة التاريخية — يحسن بنا أن نبدأ بحثنا منذ حكم الرومان والفرس أى من السنة الأولى للميلاد حتى سنة ٦٥٠ منه . وإن من الخطأ كله الظن بأن العرب قبل الاسلام كانوا قوماً متوحشين . إن موقف العرب فى ذلك الوقت كان صعباً جداً حيال أكبر امبراطوريتين عرفهما ذلك العصر . وموقفهم هذا جد شبيه بموقف جرمانيا فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر عند ما كانت بين الامبراطورية الفرنسية والامبراطورية النمساوية . ان اضمحلال هاتين الامبراطوريتين مكن جرمانيا من الاستقلال والوحدة كما أن نفس السبب أى اضمحلال الامبراطوريتين الرومانية والفارسية مكن العرب من تأسيس وحدتهم عند ظهور الاسلام[1] وانى لا أظن بأن أحداً يحلم بأن يقول إن الجرمان لم يتمكنوا من الاستقلال قبل ذلك الوقت لأنهم شعب منحط . ولذلك يجب أن نعترف بأن العوامل الجغرافية قديرة على تأجيل اتحاد واستقلال أمة ما مدة طويلة .

بظهور الاسلام فى القرن السابع ابتدأ الفتح الاسلامى العربى الذى اجتاح أكثر البلدان المعروفة فى ذلك الزمان بمدة تقل عن مئة سنة . كما أن العرب تمكنوا من فتح بلاد وجد فيها أوربيون مثل شمال أفريقيا حيث سكن الوندال ، وأسبانيا حيث سكن القوط . ان هذه الفتوح التى تعتبر من أعظم الأعمال التى عرفها التاريخ أدت إلى تأسيس امبراطورية دامت ٣٠٠ سنة ؛ وقد حافظت على كيانها بالرغم من انقسامها فيما بعد . وبقيت قوية وعمرت أكثر من الامبراطورية البريطانية الحالية .

عند قدوم العثمانيين بعد سنة ١٣٠٠ للميلاد لم يبق للعرب تاريخ[1] ولكن هنا نقطة واحدة يجدر بنا بحثها لتعلقها بسؤالنا حول قابلية العرب للرقى .

إن العرب لم يعيشوا فى خلال السبعمائة سنة الماضية فى جو مثبط للعزيمة أو فى عصر مدنية راقية وقصروا عنها حتى يمكننا القول بأن طينتهم فسدت وفقدوا مزاياهم . ان الاتراك استولوا على الوظائف الرئيسية ابان حكمهم وقطعوا صلات العرب بالعالم الآخر ومع ذلك يصح أن أقول إن العرب الذين نراهم اليوم عاشوا مئات السنين الماضية نفس المعيشة التى عاشها الأشخاص الفاتحون الذين قاموا بتأسيس تلك الامبراطورية الكبرى — طبعاً هم جهلة ومتأخرون لحد ما — ولكن لا يوجد شىء يجعلنا نعتقد بأنهم فقدوا صفات الشجاعة والذكاء التى مكنتهم من القيام بفتوحهم وتأسيس امبراطوريتهم العظيمة .

حيوية العرب العصريين :

دعنا ننتقل الآن برهة وجيزة لبحث حيوية العرب العصريين . وبما أن الوقت لا يتسع لبحث هذه القضية بحثاً واسعاً فسأقصر كلامى على وجهة أو وجهتين بالنسبة للوضع الحاضر .

إننى لم أصادف فى تجاربى وأعمالى ما يحملنى على الاعتقاد بأن العرب غير قادرين على تيسير الأمور من وجهة حكومية أو إدارية

---

(١) الاسلام هو الذى وحد العرب ومكنهم من اكتساح الامبراطوريتين الرومانية والفارسية . (المترجم)

نفسه ، ومنهم من يراه مسيئاً إلى المجتمع أو الدولة لا إلى نفسه ، ومنهم من يشجع على الانتحار ، ويرى أن المرء إنما يكون عرضاً ولا يكون قصداً ، فالأمر فى نفسه له .

وروى أرثر شوبنهور فى كتابه (فى الدين) لأحد حكماء الإغريق ستوبى Stobée هذا القول :

على الأخيار أن يعتزلوا الحياة إذا اشتد شقاؤهم ، وعلى الأشرار أن يفارقوها إذا عظمت سعادتهم ...

---

(١) استولى السلطان سليم العثمانى على البلاد العربية سنة ٩٢٢ هـ — ١٥١٦ م بعد أن انتصر على الملك الأشرف قانصوه الغورى فى وقعة مرج دابق قرب مدينة حلب . (المترجم)

كالحكام الاعتياديين فى أوربا أو الاضطرابات والقلاقل التى تقوم عادة عند استقلال أى بلد عربى أمر طبيعى كما حدث فى سوريا أو العراق عند انتقال الإدارة من السلطات الأوربية إلى السلطات العربية . وهنا أحب أن أذكر نقطتين : الأولى ان انتقال الإدارة من يد إلى أخرى لابد أن يوجد فترة عدم استقرار ؛ فعند ما تسلم البريطانيون والفرنسيون إدارة هذه البلاد من الأتراك حدثت اضطرابات أعظم من هذه ودامت سنين عديدة ؛ ولكن الآن وبعد مضى هذه المدة الطويلة على حكمهم يمكنك أن تجد إدارة منظمة كالآلة وموظفين قديرين . الثانية ، وربما كانت الأهم أن أهل البلاد التى تحت انتدابنا يعرفون أن من وراء كل بريطانى أو فرنسى قوة عسكرية عظيمة ، ومهما حاولنا أن نخدع أنفسنا بقدرتنا فعلينا أن نعترف بأن كثيراً من أعمالنا لا يعزى إلى شخصياتنا بل إلى القوى البرية والجوية التى تزيد من هيبتنا. فاذا ما أخذ عربى مسؤلية الحكم عرف الجميع بأن لا قوة ولا أساطيل وراءه تحميه .

سأقدم إليكم مثلا من وجهة ثانية على قدرة العرب العصريين فى تطبيق النظم الفنية والعلمية الحديثة والاستفادة منها . وبهذه المناسبة سأذكر عملا أشرفت عليه بنفسى : عند ما أنشأت قوة البادية حاولت أن يكون أفرادها من البدو الرحل — وهذه الفئة من العرب أجهلها — ولكن بعد مضى أربع سنين أو خمس تمكن هؤلاء الجهلاء من القيام بقسم النقل الميكانيكى لتأمين مواصلات القوة كما تعلموا استعمال المدافع الرشاشة ؛ وهم الآن يتدربون على إجراء المخابرات اللاسلكية . إن عدداً من هؤلاء أرسل إلى مشغل فورد بالاسكندرية ودرسوا جنباً لجنب مع إيطاليين ويونان ومصريين وجنسيات أخرى وعادوا يحملون كغيرهم شهادات فنية فى « الميكانيك » . ولقد قرأت حديثاً فى كتاب أن البدوى يذبل ويموت — كالهنود الحمر — عند احتكاكه بالمدنية . فعدا عن خطل هذا الرأى أقرر بأن البدوى — إذا ما أعطى الفرصة — يمكنه أن يصبح متحضراً ومدنياً بكل ما فى هاتين الكلمتين من معان .

انقسام الشعوب العربية :

إن الصعوبة التى يواجهها العرب الآن هى عدم التجانس . وقد سبق أن قلت إن سوريا والعراق معرضتان للمؤثرات الخارجية من جهة ، والتأثير العربى الخالص من جهة أخرى . وقد كانت تقوم فى أواسط هذه الأقطار وعلى الأخص سوريا وفلسطين وشرق الأردن منافسة شديدة بين ثقافات متباينة . وقد ظهرت هذه المنافسة جلية واضحة بسبب تشدد الأمم الأوربية فى مسألة القوميات .

لقد كان ظهور القومية فى أوربا سبباً فى ظهور القومية العربية . ومثل هذه الفكرة كانت مفقودة فى زمن الامبراطورية العثمانية عند ما كان العرب لا يعرفون قضية كهذه قبل ٥٠ سنة . لقد كان الولاء زمن الإمبراطورية العثمانية ولاء دينياً لشخص الخليفة أو للامبراطورية نفسها التى كانت خليطاً من أجناس متعددة . وقد كان العرب لا يهتمون بالقضية القومية حتى احتكوا بالأقوام التى حافظت على قوميتها فقاموا ينادون بأنهم أمة واحدة ذات قومية خاصة . وقد كان عرب فلسطين وهم مختلفو الجنسية والدين — لا يعرفون القومية حتى احتكوا باليهود والانكليز فقاموا ينادون بأنهم عرب وأتحدوا [1] . ومن ثم بعد أضحوا يفهمون القومية شعروا باشمئزاز مما يتخيلونه أو يتحققونه من استخفاف الشعوب الأخرى بأمرهم — والخطوة التى تلت ذلك أن الشاب المتعلم قام يعمل ليتعرف إلى الأسباب التى مكنت الأوربيين من حكم بلادهم فوجدها العلم والمال والقوة ، أو بالأحرى ما هو عليه المجتمع الأوربى الحالى ، فقام يقتبس كل ما هو أوربى ويسعى على السير وأوربا فى مضمار واحد . إن أمام هذه الفئة طريقين مختلفين : الأول أن تجرب أن تعلم العامة فتسير الأمة وتنهض كلها دفعة واحدة . وتطبيق هذا عملياً جد صعب — والثانى أن يقتبس المتعلمون وحدهم كل ما هو أوربى — وهذا ما نعلمه — فيتركون بذلك طبقة العامة من الأمة — وهم الأكثرية — وراءهم وبذلك يفتحون ثغرة واسعة بين طبقات الأمة . وأرى أن هذا سبب ضعف كبير .

(١) لقد عرف العرب القومية وناداوا بها منذ فجر تاريخهم ، وقد كانت حرب ذى قار بين العرب والفرس زمن الجاهلية مظهراً عظيما من مظاهر القومية . وما قضايا العرب والموالى ودعاة الشعوبية (الأقوام غير العربية من المسلمين) إلا قضايا القومية والعجمة . وقد جاهر ونادى العرب بقوميتهم منذ بدء الفتح العثمانى أيضاً حتى نهاية الحرب الكونية . وما الثورات العديدة التى قامت بجبل الدروز واليمن والحجاز على الحكم التركى إلا مظاهر رائعة من مظاهر القومية . وقد استمرت هذه الثورات حتى الحرب الكونية حيث شنق جمال السفاح كثيراً من العرب لأنهم كانوا ينادون بقوميتهم ويحققهم فى حكم أنفسهم بأنفسهم . (المترجم)

التطورات الحديثة

رأينا فى بحثنا عن قابلية العرب للرقى أن الإسلام لا يقف حجر عثرة فى سبيل رقيهم ، وأن جو بلادهم لا يوجد أمة خاملة ، بل على العكس رأينا أنهم شعب قوى حيوى شديد المراس ، وأن تاريخ بلاد العرب الشمالية يرينا أنهم أهل عزم وقوة ، وقد قاوموا جغرافية بلادهم الشاذة التى يجعلت أقطارهم الهامة على الأطراف وأوجدت بادية الشام فى الوسط فاصلة أقطارهم عن بعضها البعض — ورأينا كيف أنهم قديرون على الحكم والاستفادة من العلوم والفنون الحديثة كما وجدنا الروح القومية تساعدهم وتسيطر عليهم ولكنها لا تزال الآن محصورة فى طبقة خاصة كما أن الأمة غير متجانسة .

علىّ أن أذكر تحت هذا العنوان نقطتين وهما الموارد المعدنية وتحسين طرق المواصلة الحديثة . لقد سبق أن قلت إن أمماً كثيرة حاولت أن تحكم البلاد العربية الشمالية ولكن لم يكن القصد من ذلك استثمار موارد البلاد الطبيعية نفسها ولكن لأنها الممر إلى الشرق والجسر البرى الوحيد لأفريقيا .

وقد بقيت أواسط الجزيرة العربية حرة فى كل أدوار التاريخ إذ كان يظن أنها فقيرة لدرجة أنها لا تساوى كلفة فتحها . لقد اكتشف النفط — البترول وزيوته — فى عدة مواضع من هذه الأقطار ، ولكن لم تعرف مناطقه وكميته بوجه التحديد . وكذلك يظن وجود بعض المعادن الثمينة فيها ، ولكن لا يمكن لأحد أن يتكهن الآن عما ستكون نتائج هذه الاكتشافات — فهى إما أن تدر الثروة — التى هى أساس القوة فى العالم على البلاد وإما أن تنبه أطماع الأمم الأوروبية .

بقيت هناك قضية طرق المواصلات الحديثة . لقد سبق أن تكلمت بهذه المناسبة عن صعوبة اتحاد الأقطار العربية ثقافياً أو إدارياً أو عسكرياً بسبب الصحارى التى تباعد بينها ، وقد استغرقت رحلة قمت بها قبل ١٥ سنة على ظهور الجمال من العراق إلى شرق الأردن ثلاثة أسابيع ، ولكن قطع هذه المسافة الآن لا يستغرق أكثر من ٢٠ ساعة بالسيارة أو ساعتين ونصف ساعة بالطائرة . يجوز أن يكون للتحسين الذى طرأ على طرق المواصلات أثر بعيد فى توحيد الثقافة بأقطار كالأقطار العربية التى تعد صعوبة المواصلات بينها من أكبر الموانع للقيام بأى عمل من الأعمال . ويجوز أن يقضى هذا التحسن على أهمية مركز حلب الحربى قضاء كلياً — فقد سبق أن تعرضت بكلامى لهذا الموضوع وقلت إن من يتمركز فى حلب يمكنه أن يعزل سوريا عن العراق عزلاً تاما — ولكن إذا أمكن تعبيد طرق جيدة وكثيرة فى وسط البادية فإن أهمية هذا المركز تزول .

وأخيراً أرى من الأهمية بمكان أن أذكر شيئاً عن الإذاعة واللاسلكى — مع العلم بأن هذين الفنين متأخران فى الأقطار العربية . لا ريب أنه سيكون للاذاعة واللاسلكى أثر بعيد فى تقدم التهذيب السياسى بين الشعوب المتأخرة كما أن الإنسان يمكنه إهمال إرسال الجرائد لأناس أميين ويمكنه أيضاً الاستغناء عن البريد ولكن من السهل عليه أن يبث أية آراء سياسية بين سكان أقصى واحة من واحات الجزيرة مهما بلغ سكانها من الجهل وذلك بواسطة الإذاعة اللاسلكية .

هذه نهاية ما أردت أن أقوله وأحب إن سمحتم لى أن أقرر عليكم قبل الختام النتائج التى وصلنا إليها فى بحثنا .

١ — إن موقع بلاد العرب الشمالية وتكوينها الجغرافى كممر إلى الشرق وجسر برى يؤدى إلى أفريقيا جعلها عظيمة الأهمية — وستبقى على الأغلب كذلك مستقبلاً .

٢ — إن تباعد الأقطار العربية الشمالية وتكوينها مثلث تتوسطه الصحراء جعل الاتحاد السياسى والعسكرى بينها صعباً جداً .

٣ — إن البلاد المجاورة للصحراء من سوريا والعراق وشرق الأردن كان يؤمها ويتوطنها العرب النجديون على مر العصور بينما نرى بلدان الساحل من سوريا وفلسطين — وحديثاً — المدن العراقية خاضعة للتأثير التركى والأوروبى وبذلك وجدت ثقافات متباينة فى البلاد .

٤ — إن روح القومية التى اكتسحت أوروبا خلقت مثلها فى الأقطار العربية وقد غذيت هذه الروح باتباع نفس الطرق التى اتبعتها أوروبا للحصول على القوة ونتج عن ذلك أن الفئة الراقية من العرب التى أرادت أن تجارى أوروبا بسرعة لم تتمكن من النهوض بسواد الشعب الجاهل مما سبب حدوث فروق ثقافية واسعة بين طبقات الشعب .